الألقاء (في الفضائيات العربية) نظاما اشاريا (دراسة الانماط الكتابية والشفوية)

د.محمد رضا مبارك
كلية الاعلام - جامعة بغداد

مقدمة:

أظهر العصر تطورا مهما في الاتصال , مفاهيم واجراءات وتقنية , وأظهر وبالدرجة نفسها عناية باللغة , وما يجمع بين الاعلام واللغة ان احدهما صنو الاخر ورافد له , فالاعلام يستمد وجوده وتحققه من اللغة ومن الانظمة العلاماتية الاخرى , وتتوطد علاقة اللغة بالاعلام بتجذر نظام اللغة الرمزي . إذ يفتح الاعلام لها حقولا معرفية ودلالية , فالتغير الذي وسم الزمن بميسمه , لابد ان يترك اثرا بينا في مفاصل الاعلام الحيوية , والالقاء الاذاعي والتلفزيوني واحد من هذه المفاصل , وقد تغير هو الاخر في اطار حركة النمو والتطور , وتعدد الوسائل والوسائط الاعلامية وانتشارها . وشمل التغير المتلقي قارئا وسامعا ومشاهدا , فما عاد الالقاء قراءة في فقرات مكتوبة , تراعى فيه الفواصل والفقرات والسكنات . ولم يعد تمثلا للمعنى في محاولة تجسيده وتجليته , بل هو فضلا عن ذلك صورة اخرى ترسم بالكلمات وبالاداء , والمعرفة الدقيقة بخصائص اللغة . ولاسيما خصائصها الشفوية , وتظهر الميزات الشخصية والصوتية للمحافظة على النظم الاشارية : نظام الكلمة , نظام الجملة , نظام النص , نظام الخطاب .

وقد حفز علم اللغة الحديث القائمين بالاتصال على الافادة من المنجز الهائل الذي حققه العصر , منذ بدايات القرن العشرين , ولاسيما التقدم في السيميائيات , الذي غدا هو الاخر علامة من علامات عصرنا : ((ففيما يسعى (علم الالسنية) الى اختزال الوحدات الدالة الصغرى المميزة انطلاقا من الجملة . تحتل الدراسات السيميائية مكانتها على صعيد أرفع , مستهدفة استقراء النظام الدلالي وفقا لوحدة اكبر من الجملة وهي الخطاب , الذي لايستنتج منه فائدة , بمجرد ضم الوحدات الدلالية الصغرى المكونة له , انما يتم استخلاصه جملة وفي كليته كوحدة كبرى , تتألف من كلية الانساق المختلفة , ولعل الاهتمام الخاص والمتزايد بالسيميائية (التي تأسست ردا على الالسنية) هو نتيجة حاجة

مختلف فروع المعرفة لادوات اجرائية قادرة على الوصف والتفسير والتحليل بدرجة عالية من الدقة , اذ نراها تصلح حاليا لان تكون وسيلة فعالة لاستقصاء انماط متنوعة من عمليات الاتصال والتبليغ))١

يعنى الالقاء الاذاعي والتلفزيوني بالانظمة القولية , بدء بنظام الكلمة وأنتهاء بنظام الخطاب , إذ ان الميزة الصوتية والدلالية والصرفية للكلمة , تأتي في اطار اوسع , اي في نطاق نسقين من الانسقة اللغوية والمعرفية هما نسق الجملة ونسق الخطاب . وهذا ما نسعى الي تبيينه في هذا البحث.

1- ايقاع الالفاظ وايقاع الجمل:

اذا كان نطق الالفاظ نطقا سليما ميزة مهمة وهي من عوامل حسن الاداء , فأن لايقاع الجملة فعالية أشد واكثر وقعا وتأثيرا في التلقي , فأيقاع الجملة هو الذي يدفع باتجاه الأصغاء اكثر بكثير من ايقاع الالفاظ , اللفظ وحسن استعماله هو امر معطى في الخبر والتقرير , لان تأدية اللفظ من اولى واجبات الملقي .

لقد غدا المعنى من اهم مايطمح اليه الملقي , فهو يلخص عملية التحرير وجمع الاخبار واعدادها وما يتعلق بذلك من اجراء , لكن هذا المعنى مستند الى شكل بل ان هذا الشكل هو عماد المعنى وأساسه , ولايقاع اللفظ وايقاع الجمل ميزات شكلية لاتنفصل عن المعنى , ومن هنا يأتي التمييز بين القراءة والالقاء , فالقراءة لها بعد واحد , وليس ضرورة ان يرتبط بشكل ما , اما الالقاء فهو مصاغ اتصاليا , اي ان بعد التلقي واحد من ابعاده المهمة , وهو يوجد بوجوده وهذا البعد الاتصالي قد اوجد فاصلا بين عدد من المفاهيم مثل مفهوم النص ومفهوم الخطاب , ومفاهيم اخرى في حقول عديدة ((ان اعتماد القراءة اساسا في الاتصال امر خاطئ ومضلل , فلقد قضت القراءة على الجانب الاتصالي في مجالات مختلفة (.....) مثل خطب الجمعة بالمساجد وخطب بعض الساسة وأسلوب قراءة الشعر العربي الموزون.. لقد طغت الرتابة على كل هذه الجوانب الحياتية العربية , وتولد عنها من جملة ماتولد الرتابة التي تولد بدورها القطيعة مع الاخر في انعدام التواصل)) .٢

المقصود بأيقاع الجملة المحافظة على الميزة المعنوية والجمالية , وهذه الميزة مرتبطة بنوع الجملة , فألقاء الجملة الخبرية يختلف اختلافا بينا عن القاء الجملة الانشائية , ولاسيما اذا كانت الجملة من نوع الاستفهام التقريري او الاستفهام الانكارى , ففي الاستفهام التقريري , معنى النفي المؤدي الى الاثبات , فألقاء الجملة في هذا المجرى الاتصالي , يرتبط بالدلالة الدقيقة المطلوبة في عملية الاتصال , وكذلك الجملة الخبرية التي قد تلقى في الاطار المعتاد للالقاء , اي ان على

الملقي الا يعمل على تفخيم بعض الحروف او ترقيقها او استعمال النبر في غير محـــله , فالالقـــاء في الجمل الخبرية لا يلجأ الى تفخيم الحروف المرققة : مثل الســـين والصاد والطاء والذال , اذ ((ان تفخيم هذه المرققات يساعد على تفخيم نبرة الجملة الاخبارية كاملة وهو ما يسئ الى العملية الاتصالية))"٣".

إن تغيير النغمة ينبغي ان يتوافق مع معنى الجملة , وأستيعاب هذا المعنى , فلا مسوغ جمالي او معرفي لتغيير النغمة داخل اللفظ ومحاولة اعطاء بعض الحروف نسبـــا موسيقـــية , دون ان يكون ذلك مرتبطا بالجملة , اي المعنى المستخلص من الجملة لحظة الالقاء . وهناك حروف تســـتجيب للتنغيم في اللغة وقد اختيرت قوافي او فواصل في حقب زمنية طويلة , هي مدة التاريخ الشـــفوي للغة العربـــية , ولعل الدارسين الذين ربطوا بين القافية وحروف الروي في الشـــعر , ارادوا ان يجعلوا القـــافية داخل المعنى وغير معزولة عنه ..

فكانت حروف الروي في الشعر مختلفة عن القافية عند اكثر الدارســـين , وكذلك الحـــال في الفواصل والكلمات المسجوعة التي قسمت على اقسام , اذ ان افضل السمع ما وافق لفظه معناه , ولابـــد من النظر الى مستوى العلاقة بـــين الالفاظ والمعاني في اطار الوحـــدة اللغوية او البـــناء اللغوي الذي لايفصل بين الاثنين . ولكن في الالقاء الاذاعي والتلفزيوني قـــد يحـــصل فصل من نوع خاص , وهذا الفصل يصعب رصده , لانه ملقى شفاهي ولكن يمكن الاحساس بتأثيره في ضعف الاتصال , فالالقاء عملية اعادة صياغة للخبر المكتوب وأن صحت التسمية فهو اعادة انتاج لما قام به التحرير , وهي اعادة انتاج سريعة ومكلفة على المستوى الذهني لانه بحاجة الى الالماح والدراية الكاملة بأســـتعمالات اللغة وطرق الاداء . وهو يتوقف حين يجب التوقف , اي عند نهاية المعنى . والجمل القصيرة قد تحقـــق هذا الهدف بلا معاناة كبـــيرة . والامر الصعب هو في الجمل الطويلة او الجمل الاعتراضية وهي لاتصلح للالقاء , فهي جمل غير اتصالية , غير ان فن الالقاء يتعامل معها وفق نظام التقطيع الجملي ((لان على الاتصالي في الفضائيات العربية ان يراعى في توقفاته او تحريكاته مســـألة جوهرية الا وهي طبـــيعة ايقاع الجملة العربية . هذا الايقاع الذي اسسه توالي وتتالي المقـــاطع القـــصيرة والطويلة , والمغلقـــة والمفتوحة والبسيطة والمشددة)) ٣ .

النظام المقطعي في اللغة العربية , يتركز في المقطع القصير والمتوسط ولاسيما في الشـــعر , يضاف اليها المقـــطع الطويل في النثر , وهناك فواصل زمنية تتخلل المقـــاطع تماما كما في الشعر , هذه الفواصل الدقيقة , هي التي تحقق ايقاع اللفظ وأيقاع الجملة في الوقت نفســـه , فما

الجملة الا مجموعة الفاظ وما الالفاظ الا مكونات الجمل .. ومن اجل صحة العلاقة بين الالفاظ والجمل في الالقاء , لابد من اتباع النظام المقطعي الذي يظهر في الالقـــاء ضرورة , بـــلا ضرورة لظهوره في القراءة , والنظام المقطعي هذا متكون من صوائت وصوامت وطرائق النطق بها مختلفة , كذلك درجة الوضوح.

فالصوائت تحتل القمم بينما تحتل الصوامت الوديان , في الرسم البياني الذي يظهر في المختبر الصوتي . والفرق الفزيولوجي هو الاساس في تحسين الالقاء , فلا تحتوي الكلمة الواحـــدة في الغالب الاعلى قمة واحدة , اي مصوت طويل واحد , واذا وجدت (الواو) في كلمة واحـــدة , مصوتا طويلا مثل كلمة (موصول) فان الواو الاولى صامت والثانية مصوت . اي ان عدد القمم في الجمل لابـــد ان يكون محدودا وهي قليلة فعلا , اذا قورنت بالوديان اي بالصوامت . ففي مثل المقطع الطويل (قـــال) , يمكن دراسته نطقا بطرق مختلفة , تارة بترقيق القاف واللام , وتقصير المد , عندها يكون الالقـــاء هابـــطا , ولاتتحقق اطلاقا الميزة الاتصالية , وتارة تلقى بالطريقـــة المعتادة , اذ يأخذ الملقـــي النفس المطلوب ويتجنب الترقيق في مثل هذه الكلمة . والترقيق والتفخيم ميزتان معنويتان وهما ايضا ميزتان تتعلقـــان بالشكل من باب أولى .

ومن اسباب عدم العناية بالميزة المقطعية للكلمة والميزة المقطعية للجملة , القدرة التنفسية , مما يؤثر تأثيرا بالغا على المعنى , لان المعنى مجموعة مقاطع كلما كثرت كثر المعنى , وان قلت قل , في معادلة اشار اليها الجاحظ في القرن الثالث الهجري اشارة واضحة في البيان والتبـــيين , فالصياح خال من المعنى لانه خال من المقاطع . ((٥)) وحين نؤكد على الناحية المقطعية في ايقاع الجمل الملقـــاة , لان المقاطع هي الاكثر وثوقا وطواعية واكثر قابلية للقياس . ان ايقاع الشعر قـــائم على تســـاوي المدد الزمنية بين المقاطع , اما الايقاع في الجمل النثرية , ومنها الاخبار والتقـــارير , فهو قـــائم ايضا على المقاطع اي على المدد الزمنية , ولكنها ليست متساوية ضرورة كما في وحدة الايقاع في الشعر .

قد يتحقق الايقاع في الكلمة لكنه لا يتحقـــق في الانتقـــال من الكلمة الى الجملة , فالمقـــاطع في جوهرها زمنية , وما تقسيمها الى قصير ومتوســـط وطويل الا للفارق الزمني . فالفارق الزمني بـــين مقطعين متوسطين في (قاطع) المكون من (قا) و (طع) يتساوى تماما بالمدة الزمنية في (كاتب) المكونة من مقطعين متوسطين , وعلى هذا يمكن ان يتحقق نوع مهم من ايقاع الجمل هو كمية المقاطع التي تعطي وضوحا في السمع , يتناسب تناسبا عضويا مع المعنى في الجملة . فالمقاطع شكل

وكذلك الألقاء , اما المعنى فهو المنبثق من الشكل , من هنا تتجلى وحدة العمل في تناسق والتحام بين الاثنين .

ولن يتحقق التواصل في الالقاء بلا انتباه الى اهمية المقطع الصوتي في الكتابة والالقاء على حد سواء , ولعلنا نستعير من نظام الشعر ماله علاقة بالالقاء . فالشعر العربي , قديمه وحديثه , لايستعمل الا نادرا المقاطع الطويلة , والسبب ان المقطع الطويل قد يكون سببا في اضعاف الدلالة في احيان كثيرة في الشعر لامتداد النفس به امتدادا غير محسوب ومقنن , ولكن المقطع الطويل يشيع في النثر . فكثرة المقاطع الطويلة في الالقاء قد يضر بالاتصال , ولاسيما اذا كان تكرارها مضطردا .. ان لغة الشعر فارقت لغة النثر في عدد من الخصائص ولكن بعد انجازات علم اللغة الحديث والدراسات الاسلوبية وجد ان الدارسين قد بالغوا كثيرا في فصل لغة الشعر عن لغة النثر ((ولقد اختلف علماء الجمل والنقاد اختلافا شديدا في طبيعة العلاقة بين لغة الشعر واللغة العادية , فبالغ بعضهم في الفصل بين اللغتين , معتبرا ان اللغة الشعرية لغة خاصة , مفارقة للغة العادية , بينما ادرك اخرون ان هناك علاقة بينهما , ولكنه رأى ان لغة الشعر تغير اللغة العادية وتنحرف عنها وتفك اليتها)) .٦

ولعل الاشارة هنا الى استعارة الشعر اساليب النثر , في المناهج الحديثة ولاسيما في قصيدة النثر , كما اقترب الشعر في بعض نماذجه من السرد , ومع ذلك فإن الشعر في كل الحالات يظل بحاجة الى الالقاء , وهو ما يظهر قيمة المقطع الصوتي .

صورة مفترضة للنطق
في مختبر الصوت (المدة محسوبة بالثانية)

المقطع	المدة الطبيعية	الالقاء	الاستقبال
القصير	١ <----> ٠،٥	٠،٥ <----> ٠،٢٥	٠،٥ <----> ٠،٥
المتوسط	١،٥ <----> ١	١ <----> ٠،٥	٠،٥ <----> ٠،٥
الطويل	٢ <----> ١،٥	١،٥ <----> ١	٠،٥ <----> ٠،٥

الشكل السابق ختبر الصوت .. وفي هذا المختبر يمكن قيا ما دقة الجدول او عدم دقتة , بل ال فين: هما زمن الالقاء وزمن الاستقبا , والوسيط هو

الاخر يأخذ جزءا من الزمن , اي ان زمن الالقاء ليس مطابقا لزمن الاستقبال , فزمن الاستقبال (اقصر) اذا نحينا الوسيط , لان الملقي يستعمل ادوات مادية وعضلية , فيها قوة وجهد اما المستقبل فلا يستعمل الا جزءا من الجهد العضوي والذهني فزمن المستقبل واحد , وزمن الملقي متعدد بتعدد المقاطع , واذا تأخر الملقي عن زمنه المحدد في النطق , تخلخل زمن المستقبل , فأصبح متعددا بدلا ان يكون واحدا , وهذا التعدد مربك لقوة السمع والانتباه , ومن ثم فهو مربك للاتصال .

اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة:

لا شك في ان اللغة تتأثر بعوامل داخلية وعوامل خارجية , والعوامل الداخلية يمكن ملاحظتها وضبطها , كما يمكن وصفها وتصنيفها , وقد وضعت اليات كثيره لدراسة الوضع الداخلي للغة , والتغيرات التي تطرأ عليها من الداخل , وتخضع حينئذ كأي كائن حي لسنة التطور والتغير.. غير ان العوامل الخارجية لاتقل شأنا عن العوامل الداخلية وهي التي يمكن رصدها ايضا ولكن لايمكن التحكم بها او التنبؤ بها , لانها تعمل خارج اللغة , اي خارج الصفات اللغوية والتي يمكن ان يطلق عليها (الميتالغة) ,, لكن هذه العوامل اخذت تؤثر في اللغة ايما تأثير , فالانتشار الفضائي وسعته , تطلب استعمالا خاصا للغة يتسم بالسرعه والايجاز , وقد يتجاوز بعض قواعد الكتابه والالقاء , بل ويتجاوز القواعد النحوية ايضا , ولسنا الان في معرض الحديث عن هذا التغير , فهو بحاجة الى رصد ومتابعة , وهو بعد لم يتشكل تشكلا تاما ليشكل ظاهرة جديرة بالبحث والدراسة , لكن مظاهره بدت واضحه وشديدة التأثير , ولكن علينا الان التفكير بالمؤثرات الخارجية الاخرى , التي ادت الى تنوع التصنيف وتعدده , مثل اللغة الاعلامية , او اللغة الصحفية واللغة المعيارية , واللغة الشعرية, وهناك تفريعات من داخل هذه الفروع, ويبدو ان الامر طبيعي وهو من جوهر اللغة , كما تقول حلقة براغ اللسانية: ((اللغة حقيقة واقعية (اي انها ظاهرة فيزيائية فعلية) ونمطها محكوم الى حد كبير بعوامل خارجية (غير لسانية) وهي الوسط الاجتماعي والمتلقي الذي يتجة اليه التواصل والموضوع الذي يشمله التواصل , وهكذا يكون من الضروري التمييز بين لغة الثقافة ولغة الاعمال الادبية , وبين لغة الدورية العلمية والصحفية , وبين لغة الشارع ولغة المكتب))٧ .

إن الفرق بين اللغة الاعلامية واللغة المعيارية (اللغة المستعملة) هو فرق من داخل اللغة , اي هو فرق من حيث النظام والاجراءات , ويقصد بالنظام الاستعمال الفعلي للغة , اي نظم الكتابة والقراءة والالقاء , فاللغة تشمل نوعين من تجليات الشخصية الانسانية , تجل ذهني

وتجل عاطفي , ولذلك كان على البحث اللساني ان يحيط بالعلاقة القائمة بين اشكال اللغة التي بـــها يتم توصيل الافكار والعواطف على التعاقب , اللغة المكتوبة واللغة المنطوقـــة لاتتطابقـــان .ولكل منهما خصائصه المميزة لابد اذا من فحص العلاقة بين لغة الكتابة ولغة النطق .

هذه العلاقة لابد ان تلاحظ داخل الوحدة اللغوية فهي تكتســـب تميزها من التنوع الداخلي , الذي يفرض اختلافا من نوع اخر , فاللغة الشـــــفاهية مختلفة داخليا عن اللغة المكتوبـــــــة , وهو اختلاف الاجراءات واختلاف طرق التلقي , على هذا النحو ننظر الى اختلاف القراءة عن الالقاء , القراءة قـــد تقبل المقاطع الطويلة وتتعامل معها بشكل لايثير حساسية صوتية , لكن الالقاء لايمكن ان يســـيغ كثرة المقاطع الطويلة , ومعنى ذلك ان الالقاء الصق بالعربية من القراءة , لان العربية لغة شـــفاهية قبـــل ان تكون لغة كتابة (مثل كثير من اللغات) , وظلت الصفات الشفاهية لصيقة بها حتى بعد تحـــولها الى لغة كتابة , لذا فان قوانين العربية ومواضعاتها موجودة في العربية الملقاة لا في العربية المكتوبـــة , ومعنى هذا مرة اخرى ان الالقاء يعيدنا الى العربية الاصلية والى الميزات الشفوية التي كانت تتسم بـــها . مع الاخذ بالحسبان التغير الهائل في اسلوب التخاطب وفي تغير المتقبل للغة , غير ان كثيرا من الســـمات الاساسية للعربية بقيت عالقة في اسلوب الخطاب الشفهي , فالمقطع الطويل , لا يناســـب اســـلوب هذا الخطاب: ((في اللغة العربية تشيع المقاطع القصيرة والمتوسطة وتقل المقاطع الطويلة , بسبـــب امتناع اجتماع ساكنيين الا في قواف مخصوصة كما يقول التبريزي , ويذهب كانتينو الى ان علماء الاصوات يقدرون نسبة شيوع المقاطع القصيرة في كلام العرب ب ٤٥%)) ٨. فإذا كانت هذه النسبـــة للمقـــاطع القصيرة , فكم ستكون للمقاطع المتوسطة , وكم سيبقى للمقاطع الطويلة ؟

ان دراسة دقيقة للمقاطع بين القراءة والالقاء , قد لاتتحقق بشـــكل تام , لان الالقـــاء هو ترجمة حرفية للقراءة , اي ان الالقاء هو تحويل المكتوب الى مسموع , ومع ذلك يظل الفرق قائما بينهما , بين المقروء والمسموع , اي ان الالقاء لاينسخ القراءة , بـــل يعيد انتاجها ســـماعا .. وإعادة الانتاج غالبـــا ماتكون ارتجالا , وهذا يقتضي نوعا شديد الدقة من التدريب واليقظة والثقافة اللغوية والصوتية , ويشاء احد الباحثين ان يميز بين القراءة والالقاء , بطريقة اكثر ايضاحا ليقول ((الالقاء عملية ديناميكية حـــية (.....) وتتعلق بمصطلحين بل مفهومين مختلفين تمام الاختلاف , الا وهما القراءة والالقاء فالقـــراءة عملية فردية وشـــخصية , لاتحـــتاج الى الاهتمام بـــالاخر , وهي عملية اوتوماتيكية يمكن ان تتراوح بين الهمس والوشوشـــة والصياح , وهي عملية مملة اذا وجهناها الى الاخر , وذلك لما

يكتسيها من رتابة .. وهي تنفي الاتصال والتواصل مع الاخر , اما الالقاء فهو عملية تشترط بـــالدرجة الاولى وجود الاخر وتنعدم بـــــانعدامه (....) وهو عملية اتصالية صرف تتوفر على نصيب هائل من الارتجال المتقن))٩.

وعلى الرغم مما في المقتبس السابق من امكانات المناقشة والحوار , فأن مايثير الانتباه , ان فن الالقاء قد تأثر ايما تأثر بالثورة الاعلامية المعاصرة وطغيان الصورة التي تتقلها الفضائيات بســـهولة ويســـر , مما مهد الطريق لظهور مفاهيم جديدة للالقـــاء , فهو اليوم المناقـــض تماما لانواع الالقـــاء المسرحي والسينمائي والخطابي , واقتضى الامر العودة الى اللغة من جديد واستنطاق امكاناتها الكامنة , والافادة من البنية الصوتية العربية , ومحاولة تطويرها وتوظيفها او ربـــما نقـــدها , وتغيير بـــعض مواضعاتها , كما ان الالقـــاء يجهد لايجاد مايطلق علية بالمتلقـــي الضمني the impliÉÇ êÉ~ÇÉê يسهم في انتاج الخطاب الاعلامي , ويتفاعل مع الملقي , مستعملا ميزات الخطاب في معناه الادبـــي . فاهم ما يميز الخطاب علاقتة بالتلقي , وشرط التلقي هو الشرط القار في الخطاب . ويظل هذا الخطاب عديم الفائدة ان لم يحقق الشرط الاتصالي , وعلى هذا فان الخبر والتقرير الاخبـــاري الملقـــى لة ميزة الخطاب , لوجود المتلقي فيه , فالسير الشعبية كانت نصوصا محفوظة في ادراج واماكن منعزلة , حقبا طويلة , ولم تصبح خطابات سردية او مرويات الا حين خرجت الى التلقي , فالمتلقـــي هو الذي اضفى على هذة النصوص وجودها الجديد فاصبحت خطابا , ولا نقول ان الخبر والتقرير الاخباري وغيرهما من الفعاليات الاعلامية هي خطاب من النوع الســـردي , الا اذا كان منهجنا التعميم , انها نوع من انواع المشاركة والاتصال بالاخر , فهي تأخذ من الخطاب الادبي بعض ميزاتها , ولا يمكن فصل هذه الانواع , عن التطور الهائل في المعارف الادبية واللغوية , فعلوم العصر تسير بشـــكل انســـاق يكمل بـــعضها البعض الاخر , ومن هنا فقد اكتسب الالقاء مفهوما جديدا ((فلكل عصر لازماتة وخطابه اللغوي الذي يتوافق على نحو ما مع معطياته الحضارية . وهذا يعني ان الخطاب العربي لتســـويق الافكار في مطلع الفية جديدة لابد ان ينطلق من توافق حضاري وتقني جديد , وأصبح من الواجب علينا , مسايرة العصر , ان ننتقـــل من لغويات اللســـان بمصطلحـــــاتة الشـــكلية , الى لغويات الكلام بأبـــــعادها الفكرية والشعورية))١٠

3- الصوتيم : علاقة لغوية

علم الصوتولوجيا , علم حـــــديث , كان نتيجة للثورة اللغوية الهائلة التي احـــــــدثها

(دوسوسير) في مطلع القرن الماضي ((وقد حاز العالم اللساني الروسي العظيم نيكولاي تروبتسكوي (١٨٩٠-١٩٣٨) عضو مدرسة براغ شرف ان يكون المؤسس للصوتولوجيا)) ١١. واللصوتيم علاقة وثيقة بالالقاء الاذاعي والتلفزيوني , وهو قريب جدا من تطبيقات في الالقاء تشمل اللغة الانجليزية واللغة العربية ولغات اخرى , فقد ((اقام تروبتسكوي نظريته الصوتولوجية على اساس عقيدة فحواها ان الصوتيم ينبغي ان ينظر الية على انه علاقة لغوية مهمتها حمل معنى الكلمة , وعلى هذا فأن احلال صوتيم مكان صوتيم اخر سيؤدي الى احداث تغيير في المعنى : في الانجليزية يكون /p/ و /b/ صوتيمين : قارن نتيجة احلال /p/ و /b/او العكس في نحو bull (ثور) في مقابل pull (مقبض) .)) ١٢.

وبهذا فأن للصوتيم دورا مهما في عملية النطق والالقاء , اذ إن تغييرا في رسم الصوتيم صوتيا يؤدي حتما الى تغير في الدلالة , فالفرق جلي بين صار وسار , غير ان الصوتيم ودوره لايتوقف على الابدال الصوتي غير الواعي , ان رسم الصوتيمات (صوتيا) قد يؤدي الى ايجاد ظلال للاصوات او ايجاد اصوات جديدة , لم تكن ضمن اصوات الابجدية اللغوية , فهي تولد في اثناء النطق والالقاء , فالعربية مثلا لا تمتلك الصوت (p) , لكنة يولد في اثناء النطق او الكلام , وتكون احيانا بشكل واع او دون ذلك ((فالباء تنطق (p) اذا وقعت قبل السين كما في حبس)) ١٣ .ويضطرد الامر كذلك في كبس ولبس وبس .. وان كنا لا نشهد الحرف (p) كما يوجد في الانجليزية مثلا , لكن نشهد ظلا له , ولو استعملنا منجزا علميا لقياس الاصوات في اللغة العربية كاستعمال المختبرات , لقياس تغير الصوتيم , لوجدنا انواعا من التغيرات الصوتية , ضمن قواعد النطق السليمة , وهي لاتدخل حينئذ في امراض النطق التي حددها القدماء . فهناك اصوات اكثر من الاصوات التي نعرفها وندونها ونقيم الدراسات عنها , وان وجود اكثر من صوت خارج الابجدية المعروفة , هو تنويع داخل الصوت الواحد , كما ان التأدية الصوتية تختلف من ناطق الى اخر ضمن ما يطلق علية بالفونميات الفوقطعية , ونحن نعطي في هذه الدراسة معنى واحدا لكل من الفونيم والصوتيم , ونعدهما مفهوما واحدا , والسبب في ذلك ان الفونيم عند الدارسين قد حدد باشكال مختلفة , ويعرف تعريفات عدة لعل اهمها مالخصة احد الباحثين بالقول ((الفونيم صوت مجرد لا وجود له في اثناء الكلام وهو اصغر وحدة صوتية غير قابل للقسمة الى وحدات اصغر)) ١٤. وينطبق القسم الاكبر من هذا التعريف على الصوتيم . تنقسم الفونيمات على نوعين رئيسيين هما ((فونيمات قطعية وهي الصوامت والصوائت ويدعوها البعض ,

فونيمات تركيبـــية او خطية , لانها تتوالى في اثناء الكلام بـــــصورة خطية , ولان الكلام يتركب منها كوحدات متتالية , وفونيمات فو قطعية وهي الفونيمات التي تصاحب الفونيمات القـــطعية وتدعى ايضا الفونيمات الفوتركيبية وتشمل النبرات والنغمات والفواصل)) ١٥.

وما اطلعنا علية (ظلال الاصوات) يقـــع ضمن الفونيمات القـــطعية , وهي مصاحبـــــة لهذه الفونيمات , وقد تشكل فونيما مستقلا , كما ان مقارنتها بفونيمات قطعية في لغات اخرى غير العربـــية يكسبها صفة الفونيم المستقل . ومعنى ذلك ان (ظلال الاصوات) يظهر في الالقاء ولايظهر في الكتابة , وهذا دليل على ان الالقاء له قدرة على توليد اصوات جديدة او ما يقـــرب من هذه الاصوات , ولكن الى اي حد يمكن للالقاء ان يوجد مثل هذه الاصوات ؟ لايوجد لدينا (مقياس) في اللغة العربية , يقيس درجة التغير في الصوت عند الالقاء ولم يلتفت علماء العربية لهذا التغير الطبـــيعي , بـــل ان وصف مخارج الاصوات ليس كافيا للتسليم بصحـــة نطقـــها ,, ويتوهم البـــعض ان وصف هذه المخارج في الفم , هو وصف دقـــيق وهو كاف لمن يريد ان يتعرف على مخارج الاصوات , على الرغم من ان وصف هذه المخارج لايكفي , فليس مهما الخروج الفيزيائي , فهناك ما يوازيه في الاهمية , وهو الدافع النفسي الذي يتحكم احيانا بنوع الصوت وشكله , والدافع النفســـي , يتدخل في الالقـــاء الاذاعي والتلفزيوني بشـــكل مباشر , ويؤثر فيه ..

ومن التقسيمات المعروفة , ان الفونيمات القطعية تقسم على صوامت وصوائت , وتنقســـم على قسمين اخرين ((هما الفونيمات الثابتة وهي التي لاتتغير من لهجة الى اخرى , ضمن اللغة الواحدة مثل , م,ن,س, والفونيمات المتقلبة وهي التي تتغير من لهجة الى اخرى , ضمن اللغة الواحدة , مثل ت,جـــ، ذ, ظ, ق .. اذ نراها تنطق ببدائل متبـــاينة في اللهجات العربـــية , مثال ذلك ث فهي ت او ث او س في اللهجات العربية المختلفة)) . ١٦

ويلاحظ ان التغيرات في الفونيمات , تظهر بشـــكل واضح وجلي عند الالقـــاء , وهذا يعني ان اللهجات لها دخل مهم في الاصوات , او ان انعكاســـها في الاصوات يأتي بشـــكل تلقـــائي . ولايكون للهجات اثر مهم في لغة الكتابة ومعنى هذا ان الصوت هو اكثر استجابة للتغيرات اللهجية من الكتابـــة , ويترتب على ذلك نتيجة خطيرة في مجمل الدرس الصوتي العربي , هو ان الشفاهية هي المجال الفارق او المائز . وأن العربية تعود الى اصلها الاول , فاللهجات قد توطدت في الاصوات , والكتابة لم تستطع ان تلغي هذه الفوارق وأذا كانت اللغة توصف بعلاقاتها الداخلية , فأن للفونيم علاقـــات

افقية ورأسية وعلاقات ثنائية , والذي يعنينا , هو العلاقات الرأسية ((فأذا استبـــدلنا فونيما بـــأخر تغير المعنى وحدث التقابل الفونيمي , وهو تقابل استهلالي (نال,قال) او تقابل وسطي مثل (قســـى,مدى) او تقابل ختامي مثل (سال) (سار) .)) ١٧ .

ولدينا في العربية فونيمان مختلفان , هما الضاد والظاء . وهما (وربـــما يحـــدث اول مرة في اللغات الحية) بينهما علاقات رأسية وعلاقات ثنائية , فأذا تغير الصوت في احـــدهما تغير المعنى مثل (ظل,ضل) , فالعلاقة بينهما علاقة رأسية , اما العلاقة الثنائية . فهي ان الفونيمين متطابقان في السمات جميعا تقريبـــــا , كلاهما مجهور , وكلاهما مضخم , والاختلاف في ان الضاد انفجاري اما الظاء فهو احتكاكي . واختلاف في المخارج , فالظاء صوت ينتج عن التقـــاء طرف اللســـان مع الثنايا العليا فهو صوت أسناني , اما الضاد فينتج عن التقاء طرف اللسان مع اصول الثنايا العليا , وهو يشـــكل مع الدال والتاء والطاء , مايطلق علية بالاصوات الاسنانية اللثوية .

هذه الاختلافات لم تمنع الناطقين بالحرفين في سياق الكلمات والجمل من ان يكونا حرفا واحدا , اي انهما يشكلان فونيما واحدا من الناحية العملية عند العراقيين على وجة الخصوص ولقـــد كانت ولما تزل كتابة الظاء والضاد , من اهم المعضلات التي تعاني منها الكتابة العربية , مما دفع اللغويين العرب الى وضع قواعد اغلبها سماعي لكتابـــة الظاء والضاد كما وجدت عند العرب القـــدماء . وفي الالقـــاء الاذاعي والتلفزيوني , لايكاد يحس الفرق بينهما , مهما حاول الملقي ان يحسن ادوات نطقه او ان يميز لسانه . وكان اولى باللغويين العرب , ان يصححوا القواعد الصوتية ويدربوا الالسنة على النطق بهذين الحرفين لان المهم هو النطق , فاللغة تعبير ناطق , ولقد انشغلوا برسم الحـــرفين في الكتابـــة , وأهملوا اهمالا يكاد يكون تاما المشكلة الصوتية في هذين الحرفين.

ان اهم مشكلة تواجة الصوت العربي هي قلة المحاولات المبـــذولة لدراســـة الصوت في اللغة العربية , خلافا لما حصل ويحـــصل في اللغات الحـــية الاخرى ((إن المادة ظاهرة متغيرة , والمظهر الصوتي للغة يتغير تغيرا مستمرا من جيل الى جيل وقد لفت الانظار على سبيل المثال المدى الذي تغير فية المظهر النطقي من اللغة الفرنسية عبر القرون , على حين انها ماتزال من حيث البنية الاساسية هي اللغة نفسها)) ١٨ .

استبدل بعض الناطقين العرب الدال بالضاد , وأستبدلوا الظاء بالزاي او مايقارب ذلك , ضمن مجموعة الاصوات لكل منهما (الالفوم) , والحقيقة انهم استبـــدلوا فونيما بـــفونيم اخر ,

والغوا الضاد والظاء , وكأنهما صوتان نافلان في اللغة , في حين حرص متكلمون اخرون على إبقائهما صوتا واحدا .

إن مهمة الملقي في الالقاء , تبدو متشعبة , وجسيمة , وتظل الثقافة اللغوية هي الفيصل في ايجاد القاء مقبول لا يضعف الاتصال او يربكه , الى ان ينتبة الدرس الصوتي العربي للمشكلات القائمة في الالقاء , بل وفي الدرس الصوتي العربي عامة , وهي مشكلات جسيمة , في اطار تخلف علم اللسانيات بشكل عام , في وقت تلقي الالسنية الرياضية وهي فرع جديد من الالسنية انتشارا واسعا في امريكا وروسيا ومن ثم في الصين .

خاتمة :

بعد التغير الهائل في وسائل الاتصال , ولاسيما الاتصال الفضائي , اصبح من الضروري العناية بالالقاء , بصفته نظاما اشاريا , فالصوت اشارة , وترقيقه وتفخيمه اشارة ايضا , كما ان السكوت بين الفقرات المسموعة اشارة . على هذا النحو يمكن الافادة من اللسانيات البنيوية التي تتضمن الحاحا على الوظيفة الاجتماعية (التواصلية) للغة , وكذلك تفسيرها للتغيرات الصوتية (اذ تبين ان لبعض التغيرات اهمية ثانوية للنظام الصوتي , وهناك تغيرات اخرى تعد حاسمة في هذا الصدد). كما ان تطور السيميائية او العلاماتية (وهي دراسة العلاقات المستخدمة لتحقيق التفاهم المتبادل) , قد فتح المجال لفحص العلامة الصوتية المستعملة في الالقاء , فضلا عن العلامة اللغوية التي حازت على المكان الاول والاساسي بين علامات التواصل .

ان سرعة التغير في وسائل الاتصال ومتتطلبات هذه الوسائل , قد غير موقع اللغة بشكل فاصل وحاسم , وغير طبيعة المتقبل , وفرض هذا منطقه على الالقاء فهما وأداءا ومنهجا , واقتضى ذلك دراسة واعية للنظام الصوتي العربي , ولاسيما نظام المقاطع ونظام الاصوات , كما دعا الى التنبيه , الى ان النظام الصوتي العربي ان لم يدرس ويفحص العلامة اللغوية والصوتية وفقا لتطور وسائل الاتصال , فان ذلك سيؤدي الى نتائج خطيرة , وقد ظهر تأثير الفضائيات في الكتابة والاملاء والاستبدال الفونيمي وكذلك في استبدال الكلمات . كما ان اهمال التطور الهائل في اللسانيات , منذ بدايات القرن العشرين , لن يؤدي الا الى مزيد من العزلة اللغوية والانزواء التاريخي , وستكون اللغة العربية هي الخاسر الاكبر في صراع بدت مظاهره اكثر وضوحا , فكثير من اللغات اخذت تخلي مكانها للغات اكثر ديمومة ومعاصرة واكثر انسجاما مع روح العصر .

الهوامش

1- عادل فاخوري . تيارات في السيمياء . دار الطليعة . بيروت , ١٩٩٠ ص٨.
2- عبد القادر الجديدي . مجلة الاذاعات العربية , تونس . العدد:٣ , ٢٠٠٤ ص٢٨.
3 - عبد القادر الجديدي . سابق . ص٢٩.
4- عبد القادر الجديدي . سابق . ص ٣١.
5- الجاحظ , البيان والتبيين , ج١ . ص٧٥.
6- سيد البحراوي . العروض وايقاع الشعر العربي , الهيئة المصرية العامة للكتاب .د.ط.د.ت. ١٩٩٣ . ص ١١٠ .
7- ميلكا افتيش , اتجاهات البحث اللساني , (المجلس الاعلى للثقافة). ترجمة سعد عبـــد العزيز مصلوح , وفاء كامل فايد . القاهرة. د.ط.د.ت ص٣٧٩.
8- سيد البحراوي . سابق . ص١١٣. وينظر الخطيب التبريزي الكافي في العروض والقوافي . تحقيق الحسان حسن عبد الله , الخانجي , القاهرة ١٩٧٧ .ص١٨.
9 - عبد القادر الجديدي , سابق ص ٢٧.
10- محمد نجيب التلاوي -مجلة الاذاعات العربية- سابق , ص٣٢.
11- ميلكا افتيش . اتجاهات البحث اللساني . سلبق ص٢٣٦.
12- ميلكا افتيش . سابق ص٢٣٦.
13- محمد علي الخولي . مدخل الى علم اللغة . دار الفلاح للنشر , عمان، ط١ - ١٩٩٣ .ص٥٣.
14 - محمد علي الخولي . سابق . ص٥٥.
15- محمد علي الخولي . سابق . ص٥٥
16- المصدر السابق ص٥٥.
17- المصدر السابق . ص٥٦
18- ميلكا افتيش . اتجاهات البحث اللساني . سابق ص٣٤٧ .

المصادر

1- الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هاون ، ط٢ .

2- الخطيب التبريزي : الكافي في العروض والقوافي ، تحقيق الحساني حسن عبد الله ، مطبعة القاهرة ، ١٩٧٧ .
3- سيد البحراوي ، العروض وايقاع الشعر العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب / د.ط / القاهرة ١٩٩٣.
4- عادل فاخوري ، تيارات السيمياء . دار الطليعة بيروت ، ط ، ١٩٩٠.
5- محمد رضا مبارك ، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط ١٩٩٣.
6- محمد علي الخولي ، مدخل الى علم اللغة ، دار الفلاح للنشر ، عمان ، ط ١٩٩٣.
7- ميليكافيتش ، اتجاهات البحث اللساني (المجلس الاعلى للثقافه) ترجمة د. سعد عبد العزيز مصلوح و د. وفاء كامل فايد . القاهرة د.ط / د.ت .
8- مجلة الاذاعات العربية ، العدد الثالث ، تونس ٢٠٠٤ .